الرؤية الاستشراقية للتصوف الإسلامي ماسينيون نموذجا

الدكتور موفق زازوي

جامعة تلمسان– الجزائر–

الملخص:

تأتي هذه الورقة كمحاولة للبحث في سياق العلاقة التاريخية بين الشرق والغرب. نتحدث هنا عن حالة خلاف وعداء. يكون التاريخ فيها شاهد عن إعطاءالغرب صورة نمطية للشرق صنعها الاستعمار الطويل الذي كرس التخلف في جغرافية المسلمين. هذه الصورة ظلت على مر العصور تكتسب ملامحها وألوانها من شخصية المستعمر المرسومة في خلد الغالبية العظمى والقائمة أساسا على أن الاستعمار في جوهره إنما يهدف إلى السيطرة على ثروات البلد و مقدراته و فرض ثقافته و فكره دون الاهتمام بثقافة البلد أو رغبة في نمائه.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق، الإسلام، التصوف

Abstract :

This article attempts to explore the context of the historical relationship between East and West. We are talking about a situation of disagreement and hostility. History is a witness that gives the West a stereotype of the East from the long colonialism that has dedicated underdevelopment to the geography of Muslims. This image has been acquired over the centuries by the colonial character of the majority, which is based mainly on the fact that colonialism is essentially aimed at controlling the country's wealth and capabilities and imposing its culture and thought without regard to culture of the country and its desire to develop it.

Keywords: Orientalism, Islam, Sufism

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

الرؤية الاستشراقية للتصوف الإسلامي ماسينيون نموذجا

الدكتور موفق زازوي

جامعة تلمسان– الجزائر–

ساهمت كتابات المستشرقين و الرحالة في الغرب في رسم صورة نمطية محددة عن الشرق .صورة ساهم في وضع إطارها و ملامحها كثير من الخيال المفتقر إلى الحقيقة .فعلى صعيد التصور أبدع الآخر شرقا متخيلا لا صلة له بالشرق الحقيقي. حوله إلى مرآة يقرأ فيها ذاته . إلى جانب ذلك يتفق نقاد الاستشراق على أنه نشاط علمي و فكري معاد للعرب و المسلمين، نشاط علمي يرمي إلى زرع بذور الشك في الهوية القومية العربية و الإسلامية .بل ذهب بهم الأمر إلى اعتباره حلقة من حلقات المؤامرة الغربية الصهيونية الهادفة إلى تقويض الأسس الفكرية للإسلام و العروبة. إن كل معرفة بالغير هي معرفة تستند على منظومة قيم تتخذها مرجعا لها ، فتمارس تأثيرها على الباحث موجهة تعامله مع الموضوع الذي يدرسه و اختياره للمفاهيم و الفرضيات و الوقائع.و بذلك تكرس انغلاق كل ثقافة على نفسها.

و من الجوانب التي اهتم بها المستشرقون في دراستهم للتراث الإسلامي، التصوف الإسلامي و في هذا البحث نحاول إلقاء الضوء على الرؤية التي قدمها المستشرقون للصوفية و على وجه الخصوص، الكتابات التي تقدم بكتابتها ماسينيون و ما بثه فيها من أفكار تستحق أن توضع في الميزان لإلقاء الضوء على الجوانب الموضوعية و الذاتية فيها والاطلاع كذلك على بعض الخبايا والدسائس التي كان يهدف إليها هذا المستشرق الفرنسي. هنا تأتي المساءلة مدخلا معرفيا لقراءة الذات بمرآة الآخر و أدواته. مع ماسينيون تحاول الدراسة اكتشاف منظور الآخر لإحدى أهم الحلقات التي أنتجتها التجربة التاريخية للأمة الإسلامية.إنها تجربة ماسينيون مع التصوف الإسلامي.ليطرح السؤال كيف قرأ ماسينيون التصوف؟

1/– في المفهومية:

أ/ في تحديد مفهوم الاستشراق: لقد كانت بداية الاستشراق مع بداية انفتاح أوربا على العالم الإسلامي ، وكان من دواعي هذا الاهتمام استعمار الشرق و نهب ثرواته و تشويه ثقافته، ولهذا السبب نلمس في الكتابات الاستشراقية بروز تأزما واضحا يطبع العلاقات الغربية بالعالم الإسلامي. فتصور

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الشرق أو الإسلام كعدو وخطر على الغرب، لا يعد جديدا في الدراسات الاستشراقية الكلاسيكية فقد نجد له جذوره التاريخية التي قد تعود إلى الحروب الصليبية غير أنه مع حاضر هذه الدراسات نجد العداء للإسلام بلغ أوجه و أضحى السمة الغالبة عليه .

جاء في لسان العرب في مادة الشرق، شرقت الشمس شروقا طلعت، واسم موضع الشرق، و التشريق أخذ من ناحية المشرق، وشرقوا ذهبوا إلى المشرق أو أوتوا المشرق.1 كما ورد هذا المفهوم في تاج العروس "الشرق، الشمس حين تشرق، وحيث تشرق الشمس، وقيل الشرق الضوء الذي يدخل في شق الباب وشرقت الشمس شرقا وشروقا طلعت وأضاءت وانبسطت على الأرض".2 فالاستشراق بهذا المعنى هو طلب النور و الهداية وكأن تراث الشرق أصبح يمثل للمستشرقين مصدرا يهتدي به لمعرفة هذا الشرق على حقيقته. ولما كان الإسلام هو الدين الغالب أصبح معنى الاستشراق البحث عن المعرفة لفهم الإسلام والمسلمين،و كل ما يتعلق ببلاد المسلمين عقيدة و شريعة و تاريخا و مجتمعا و تراثا. إن الهاجس الذي يشغل المستشرقين يتمثل في معرفة هذا التراث على أتم وجه لأنه يمثل في رأيهم تحديا ينبغي تجاوزه بكل الوسائل وعلى اختلافها. وإذا رجعنا إلى كلمة الاستشراق بالفرنسية، فإن مصطلح الاستشراق"orientalisme" يعبر عموما على مجموعة المعارف التي تتعلق بالشعوب الشرقية وتفيد اللاصقة اللغوية isme وiste في orientalisme و orientaliste. ليتحول الاستشراق إلى اتجاه أو مذهب معين في دراسة الشرق. يميز هذا الفرع عن جميع الفروع الأخرى.

ويعد علم الاسلاميات islamologie من أكبر فروع الاستشراق المتخصص الذي يعنى بدراسة الإسلام.3

وبالرجوع الى الاستشراق من حيث الاصطلاح نجده يطلق عادة على كل "حركة فكرية واسعة النطاق، متعددة الجوانب تعنى بدراسة الحياة الحضارية للأمة الشرقية بصفة عامة ودراسة حضارة الإسلام بصفة خاصة"4. ومع أن الاستشراق ومجال الدراسات الاستشراقية كان مقتصرا في بداية ظهوره على دراسة الإسلام والحضارة واللغة العربية وآدابها، فإن دائرته، اتسعت فيما بعد وأضحت تستوعب دراسة الشرق كله، لغاته، وأديانه، وعاداته، وان ظل الدين الإسلامي يستقطب اهتمام المستشرقين في دراساتهم.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يرجع بعض الدارسين إلى أن أول من استعمل كلمة استشراق هم " اللبنانيون في القرن التاسع عشر للدلالة على علم جديد أقبل عليه الغربيون بدراستهم الشعوب الشرقية في مواطنها الأصلية وفي ديانتها وتقاليدها ولغاتها وعادتها وما يتعلق بكل ذلك من خصائصها المعاشية،والحضارية، فسموا العلم (الاستشراق) وسمو الذين قاموا به (المستشرقين) أما منهم من اختص بدراسة العرب وأحوالهم وميزاتهم فأطلقوا عليهم(المستعربين)"5. مفهوم الاستشراق في الأدبيات الغربية، يمثل مادة علمية تتعمق في دراسة الشعوب الشرقية من خلال لغاتها و تاريخها و حضارتها، وبذلك أضحى موضوع الاستشراق، معترفا به أكاديميا وبموجبه تم تعيين كراسي الأساتذة في كبرى الجامعات الغربية6. مع أن مصطلح الاستشراق ظهر في الغرب منذ قرنين من الزمان على تفاوت بسيط بالنسبة للمعاجم ومن الغربيين أيضا الذين تناولوا ظهور الاستشراق وتعريفه، المستشرق الفرنسي مكسيم رو دنسون الذي أشار إلى أن مصطلح الاستشراق "ظهر في اللغة الفرنسية عام 1799 بينما ظهر في اللغة الانجليزية عام 1838 وأن الاستشراق ظهر للحاجة إلى إيجاد فرع متخصص من فروع المعرفة لدراسة الشرق ويضيف بأن الحاجة كانت ماسة لوجود متخصصين للقيام على إنشاء المجلات والجمعيات والأقسام العلمية."7 و قد جاء في الموسوعة العالمية أن الاستشراق "هو حقل معرفي وإبداعي ضخم نشأ في الغرب لدراسة الثقافات الشرقية، وتمثلها في الفنون المختلفة وتعتبر الجوانب السياسية والعلمية والدينية هي الأبرز بين جوانبه المختلفة، فقد كان الهاجس الرئيسي وراء نشوئه."8 وهناك من ذهب إلى تعريف الاستشراق أيضا بأنه: "ذلك التيار الذي يدرس العالم الشرقي و الفكري الذي يمثل الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، والتي شملت حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته."9 انه نوع من أسلوب التفكير يرتكز على التمييز في الجوانب المعرفية والعرفية، و الأيدلوجية بين الشرق والغرب.

و صفوة القول فإن مصطلح الاستشراق علم يراد به دراسة علوم الشرق وأحواله وتاريخه ومعتقداته وبيئاته الطبيعية والعمرانية ودراسة كذلك لغاته ولهجاته وطبائع الأمة الشخصية الخاصة بكل مجتمع شرقي. ولو انتقلنا إلى العرب والمسلمين الذين تناولوا هذا المصطلح نجد أن ادوارد سعيد له عدة تعريفات للاستشراق منها أنه "أسلوب في التفكير مبني على تميز متعلق بوجود المعرفة بين الشرق والغرب"10

وفي موضع آخر يعرف سعيد الاستشراق بأنه "المجال المعرفي أو العلم الذي يتوصل به إلى الشرق بصورة منظمة كموضوع للتعلم والاكتشاف والتطبيق."11 ويرى سهيل إدريس أن كلمة استشراق "تعني

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حب الأشياء الشرقية عند المسلمين.12 يضيف ادوارد سعيد قائلا" بأن الاستشراق ليس مجرد موضوع سياسي... وليس تكديس لمجموعة كبيرة من النصوص حول المشرق... إنه بالتالي توزيع للوعي الجغرافي إلى نصوص جمالية وعلمية واقتصادية واجتماعية وفي فقه اللغة"13إن العلاقة التي تجمع هذه التعاريف تكمن في وجود اتجاه متميز من الغرب نحو الشرق وليس العكس على أساس أن هذا الاتجاه يلتبس فيه الذاتي بالموضوعي، فان كان القصد منه أن الصفة الموضوعية هي البارزة فان الشيء الذي يحركه من الداخل يكمن في البعد الاديولوجي الذي يكمن وراءه وهذا ما يبرز في تعريف آخر يقدمه ادوارد سعيد عندما يقول هو: "أن الاستشراق من الإسقاط الغربي على الشرق وإرادة حكم الغرب للشرق"14 فيكون الاستشراق هو الصورة التي يرى بها الغرب نفسه في الشرق. أي كل ما يصدر عن الغربيين من إنتاج فكري وتقارير سياسية، حول قضايا الإسلام و المسلمين في العقيدة، وفي الشريعة و في الاجتماع وفي السياسة و الفكر و الفن. بالإضافة إلى هذا التحديد يمكننا أن نلحق بالاستشراق كل ما يكتبه النصارى العرب من أقباط وغيرهم ممن ينظر إلى الإسلام من وجهة نظر غربية، ويلحق به أيضا ما ينشره الباحثون المسلمون الذين تتلمذوا على أيدي المستشرقين وتبنوا كثيرا من أفكارهم أمثال محمد أركون وغيرهم من العرب المسلمين.

ب/ في تحديد مفهوم التصوف:

نشأ التصوف بداية أمره في أحضان الكتاب والسنة واحتل هذا العلم موقعه في تصنيف ابن خلدون ، حيث اعتبره من "العلوم الشرعية الحادثة في الملة .و أصله أن طريقة هؤلاء القوم، لم تزل عند سلف الأمة 15

ولكن نتيجة احتكاك المسلمين بالثقافات والحضارات الأخرى من يونانية وفارسية ودخول أناس حديثي العهد بالإسلام من الحضارات الأخرى "في دين الله أفواجا " وما وقع في العالم الإسلامي من حوادث كان لها تأثيرها في جميع جوانب الحياة من جهة ثانية .. كل ذلك أدى إلى دخول عناصر جديدة في التصوف الإسلامي،ومن ثم اختلط بعناصر يونانية و يهودية و هندية و مجوسية فظهر التصوف الفلسفي في مقابل التصوف السني.16 لم يتفق الباحثون في التصوف على تحديد أصوله فاختلفت الآراء حوله. يمكن إيجاز ذلك في موقفين: من قائل بأصالته ومعارض لهذا الرأي ملحقين إياه بعناصر أجنبية دخيلة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بدأ التصوف بالزهد، وكانت حركة الزهد الإسلامي بمثابة إرهاصات لنشوء التصوف الإسلامي، فالزهد اتجاه سلوكي يتضمن التقشف وعدم التعلق بالدنيا وغايته إتمام العبادات وكمالها وفق التشريع الإلاهي . فمن الناحية العملية هو أسلوب من الحياة يحياه المؤمن، و موقف خاص من الدنيا و زخرفها و شهوتها و لذاتها و من النفس و مطامعها. فالزهد بهذا المعنى حث عليه الدين الإسلامي و أخذ به النبي عليه السلام و كثير من الصحابة.17 لذلك يمكن اعتبار الإسلام ممثلا في القرآن والحديث هو العامل الأول والأهم في نشوء حركة الزهد بين المسلمين .فالقرآن الكريم حث على الورع والتقوى وهجر الدنيا وزخرفها،عظم من شأن الآخرة،ودعا إلى العبادة والتبتل، وقيام الليل و التهجد، وما إلى ذاك مما يدخل في صميم الزهد يقول الله تعالى : "واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ".18 وقوله تعالى "يأيها المزمل ، قم الليل إلا قليلا، نصفه أو انقص منه منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ".18 والتقشف والأعراض عن زينة الحياة الدنيا، لا يعني من المنظور الإسلامي التواكل وترك العمل والانقطاع النهائي عن العبادة والإعراض عن الحياة كلية. بل إنه عبادة وعمل و جهاد و تضحية في سبيل نشر الدعوة الإسلامية.

ما نخلص إليه أن التصوف كسلوك وتعبد وزهد في الدنيا وإقبال على الآخرة للنفس. كلها أفكار من صميم القرآن و السنة النبوية .غير أن هناك من يرى أن أصل التصوف هو الرهبنة البوذية.

إن محاولة الإجابة عن سؤال ما مفهوم التصوف ؟ يجعلنا نتردد في الإجابة ذلك انه من الصعب وضع تعريف دقيق للتصوف،لأنه تجربة ذاتية وجدانية تختلف باختلاف الأفراد والجماعات. "فهي فلسفة للحياة وطريقة معينة في السلوك يتخذها الإنسان لتحقيق كماله الأخلاقي،وعرفانه بالحقيقة وسعادته الروحية."19 يفهم من هذا أن" التصوف تجربة روحية ربانية فريدة من نوعها"20. ولهذا فإن كلمة التصوف حتى وإن كانت تبدو لنا من الكلمات الشائعة إلا أنها غامضة ويعود سبب الغموض إلى تعدد واختلاف مفاهيمها .

التصوف لغة : عند البحث عن اشتقاق كلمة تصوف يلاحظ نوعا من الإثارة للجدل، فحسب زكي مبارك في كتابه التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق الجزء الأول يشير إلى أربعة احتمالات: 21

1- أن يكون الصوفي منسوبا إلى صوفة وهو اسم رجل كان انفرد لخدمة الله سبحانه وتعالى عند بيته الحرام ، واسمه الغوث ابن مر فانتسب الصوفية إليه، لمشابهتهم إياه،بالانقطاع إلى الله .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2- أن يكون التصوف نسبة إلى الصوف و" سمي بالصوفي لأنه يفضل لبس الصوف تقشفا "22

وهو تعبير عن الزهد وابتعاد عن ملذات الحياة الدنيا ثم لأنه كان لباس المسيحيون الرهبان .

3- قيل أن التصوف مشتق من الصفو بمعنى الصفاء،وقيل أنه مشتق كذلك من الصف،لأن الصوفية في الصف الأول أمام الله،وقيل أنه نسبة لأهل الصفة وكانوا قوما من الفقراء المساكين مهاجرين والأنصار بنيت لهم صفة في مؤخرة مسجد رسول الله وكانوا يقيمونا فيها ،وكانوا معروفين بالعبادة23.

4- هناك من يذهب إلى أن كلمة التصوف تعود في أصلها إلى سوفيا اليونانية، والتي تعني الحكمة . وهذا ما ذهب إليه بعض المستشرقين 24"

وأول من عرف هذا الرأي البيروني ووافقه في ذلك الدكتور محمد جميل غازي الذي قال :" الصوفية كما تعلم اسم يوناني قديم مأخوذ من الحكمة 'سوفيا' وليس كما يقولون أنه مأخوذ من الصوف "25

5- ويذهب الرأي الخامس إلى أن التصوف يرجع إلى أن القوم كانوا يقصرون طعامهم على الصوفانة"26

وهي بقلة رعناء قصيرة وهذا الرأي يستند إلى مصدر قرآني في قوله تعالى :" وقالوا لن نصبر على طعام واحد".

6- أما الرأي السادس فهو رأي حديث أظهره الأستاذ المرحوم علي سامي النشار، والذي يعود إلى فرقة يهودية تسمى الكبالية أو القبالية نسبة إلى كبالا وهي علم الطلاسم والسحر عند اليهود وقد نجد أثر هذه الفرقة الكبالية عند أبي العباس المرسي، الذي يعبر عن صفات الصوفي من خلال حروفه الأربعة:

فالصاد إشارة إلى صدقه وصبره ووفائه و الواو تشير إلى وجده ووده و وفائه. والفاء إلى فقره وفقده وفنائه. وأخيرا الياء وهي ياء النسبة.27 بهذه الصفات يكون الصوفي قريبا من مولاه .

ما نستخلصه من هذا التعدد في اشتقاق كلمة التصوف هو أن تحديد المصطلح يعود إلى أصل التصوف ومصدره، فالذين يرجعون التصوف إلى أصول إسلامية يشتقون الكلمة من الصفاء أو من الصف، أو أهل الصفة، أما الذين يرجعونه إلى أصول غير إسلامية فيشتقون أصله من سوفيا اليونانية أومن الصوف الذي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كان لباس الرهبان المسيحيين. 28هذا الاختلاف في تحديد كلمة التصوف يعود في الأصل إلى أن التصوف تجربة وجدانية إنسانية تشترك فيها الأمم جمعاء . وهكذا نجد التباين في آراء الباحثين حول المعنى اللغوي لكل من الصوفية والتصوف، ومن ثم لم يقتصر هذا الاختلاف بينهم حول المصدر الذي اشتق منه لفظ التصوف وإنما تعداده إلى التباين في الآراء أيضا حول المعنى الاصطلاحي له فتعددت تعار يف التصوف و تباينت .

أما التصوف اصطلاحا :عرف تعريفات متعددة أغلبها يتأسس على صدق العاطفة اتجاه الله عز وجل مع التمسك بتعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية. إن التصوف هو "طهارة باطنية أي طهارة القلب والضمير وهو طهارة ظاهرية أي طهارة البدن واللسان والجوارح "29. وأصل التصوف "العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ومتاعها والزهد في ما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه و الإنفراد عن الخلق في الخلوة والعبادة "30 فقد أسس سهل ألتستري التصوف"على سبعة أحكام : التمسك بالكتاب والاقتداء بالسنة ، وأكل الحلال وكف الأذى، وتجنب المعاصي ولزوم التوبة وأداء الحقوق ".31 ولعل أكثر التعريفات شمولا تعريف ابن عجيبة"التصوف علم يعرف به كيفية السلوك في حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل، وتحليتها بأنواع الفضائل، وأوله علم وأوسطه عمل وآخره موهبة ". 32 كما عرف ابن عرابي التصوف بأنه:" الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا أو باطنا وهي الأخلاق الالاهية، وقد يقال بإزاء إثبات المكارم للأخلاق وتجنب سفاسفها لتجلي الصفات الالاهية،وعندنا الاتصاف بأخلاق العبودية،وهو الصحيح، فإنه أتم."33 وعرف أبو أحمد الجريري 'ت 311هـ ' التصوف قائلا :" الدخول في كل خلق سني والخروج عن كل خلق ديني " ومعناه أن التصوف هو الاتصاف بأوصاف الكمال الديني والخلقي، أي أن يصبح التصوف صفة ملازمة للنفس لا مجرد رسم أو صورة . أما ابن خلدون فقال عن التصوف:"إنه رعاية حسن الأدب مع الله في الأعمال الباطنية والظاهرة بالوقوف عند حد وده مقدما الاهتمام بأفعال القلوب، مراقبا خفاياه حريصا بذلك على النجاة "34

يتضح لنا من خلال هذه التعاريف أن كل صوفي يحاول التعبير عن هذه الظاهرة كتجربة معاشة ومن تم يختلف التعبير من حيث أن كل واحد منهم يحاول تقديم ترجمة لحياته الروحية الوجدانية . وعلى هذا الأساس فان التصوف الإسلامي لا يمكن حصره في تعريف جامع وشامل لان المتصوفة لم يعرفوا التصوف

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إلا من خلال أحوالهم، ومجاهداتهم التي عايشوها واختبروها .هذا ما جعل ابن خلدون يفسر هذا التعدد في تعاريف التصوف إلى سببين هما: اختلاف أحوال المتصوفين،وتطور الحياة الإسلامية.35 كنتيجة لما سبق أن التصوف اتجاه جديد يعبر عن العاطفة الدينية في صفاتها ونقائها وهو الجانب الروحي الذي يعتمد علي الحب الخالص لله سبحانه،يكشف الإنسان فيه عن البعد المتعالي فيه ليتحول إلى إنسان كامل فهو يحاول كشف حكمة الله في الحياة حيث يمتع القلب والروح بلذة المشاهدة .

مراحل التصوف :

1- التصوف السني: منذ مطلع القرن الثالث الهجري أخذت العناصر الداخلية تتسرب إلى الإسلام، و أخذ الزهد يتحول بسرعة إلى التصوف متشبعا بتيارات علمية ونظرية أجنبية مسيحية وهندية وفارسية ويونانية."وقد بلغ التفاوت بين الطبقات في هذا العصر مبلغا عظيما، فهناك الترف والنعيم لقوم والبؤس والحرمان لآخرين، وكان لهذه الظاهرة أثرها في انتشار الزهد واتساع حركته،فمن الناس من يئسوا من الغنى ورأوا أنفسهم لا تطاوعهم في التقرب من ذوي الجاه، وحاولوا ذلك فلجأو إلى القناعة يروضون أنفسهم عليها، وقالوا إذالم يكن ما تريد فأرد ما يكون، مما دفع ذلك إلى الدعوة إلى تتبع خطا النبي" ص" والاقتداء بالسلف الصالح، وعملوا على تقوية الاتجاه الروحي الذي يعتمد على العقل والعاطفة في إدراك الحقائق لأنهم لم يجدوا في علم الكلام ماتطمئن به نفوسهم".36 وبوجه عام فإن التصوف في القرن الثالث الهجري كان في معظمه تصوفا سنيا يوصف ب"علم القلوب" الموصل إلى معرفة الله بلا واسطة كما يوصف ب"علم الباطن " الذي يشتمل على الأحوال النفسية وعلى المقامات المكتسبة وعلى الأذواق القلبية لمعرفة الله، والمتصوفة أهل الباطن وأرباب الحقائق والفقهاء والمتكلمون أهل الظواهر والرسوم وأبرز صوفية مرحلة التصوف العملي 'ذو النون المصري ' و'ابو يزيد البسطامي' و 'الجنيد ' وكان لهؤلاء أثر عميق في تطور التصوف من عمل إلى فلسفة ذات ملامح معينة ."37

2- التصوف الفلسفي: في هذه المرحلة برزت نزعة الزهد في مرحلة متطورة تجلت مع رابعة العدوية التي أثارت فكرة الحب الالاهي التي مهدت الطريق لفكرة الاتصال أو الفناء التي طبعت الزهد بطابع التصوف الفلسفي و من هنا أخذ المذهب الصوفي يتجه نحو مجريين:حمل الأول التأثير اليوناني ،و انطبع الثاني بالطابع الهندي.38

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مرحلة المبادئ المتطرفة:اتسم التصوف في هذه المرحلة بالسرية حتى لا يطلع عليه العوام من الناس .فإذا كان الفناء عند البسطامي قد دعاه إلى القول بالاتحاد فانه قد أدى بالحلاج إلى القول بالحلول أي بحلول اللاهوت في الناسوت. وصولا إلى حالة من الفناء .هذه الحالة دعته إلى كشف بعض الأسرار كقوله أنا الحق و الحق أنا نحن روحان حللنا بدنا. فالحلاج كالبسطامي كان يغلب عليهم حال الفناء لذلك صدرت عنه كما صدرت عن البسطامي شطحات مستشنعة الظاهر، إلا أن الحلاج كان بوجه عام في تعبيره عن أحواله أكثر دقة و عمقا من البسطامي و يبدو فعلا أنه متأثر بثقافات أجنبية كالفلسفة الهلينية و بعض الأفكار الفارسية و الشيعية و العقائد المسيحية.39 إلى جانب أفكار أخرى كالقول بوحدة الوجود مع ابن عربي و ابن سبعين ...

2/– التصوف وأسئلته عند ماسينيون

أ/ ماسينيون حياته و بعض خصائص المدرسة الاستشراقية الفرنسية:

يعد لوي ماسنيونLouis Massignon ء (1883م–1962م) من أكبر مستشرقي فرنسا وأشهرهم .ولد في 25 يوليو سنة 1883على ضفاف نهر المارن بضاحية نوجان القريبة من باريس .كان والده "فرديناند ماسينيون " نحاتا مما أثر على تذوق ابنه للفن و الجمال وعنايته بالآثار الإسلامية .

ولد في باريس وحصل على دبلوم الدراسات العليا في بحث عن المغرب، كما حصل على دبلوم اللغة العربية من مدرسة اللغات الشرقية الحية (فصحى وعامية) زار كلاً من الجزائر والمغرب وفي الجزائر انعقدت الصلة بينه وبين بعض كبار المستشرقين مثل جولدزيهر وآسين بلاثيوسوسنوك هورخرونيهولي شاتيليه. التحق بالمعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة عدة أعوام (1907م–1908م) وفي عام 1909م عاد إلى مصر وهناك حضر بعض دروس الأزهر وكان مرتدياً الزي الأزهري، زار العديد من البلاد الإسلامية منها الحجاز والقاهرة والقدس ولبنان وتركيا، عمل معيداً في كرسي الاجتماع الإسلامي في معهد فرنسا (1919م–1924م) وأصبح أستاذ كرسي (1926م–1954م) ومديراً للدراسات في المدرسة العلمية العليا حتى تقاعده عام 1954م. وقد اشتهر ماسنيون باهتمامه بالتصوف الإسلامي وبخاصة بالحلاج حيث حقّق ديوان الحلاج (الطواسين) وكانت رسالته للدكتوراه بعنوان (آلام الحلاج

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

شهيد التصوف) في جزأين وقد نشرت في كتاب تزيد صفحاته على ألف صفحة (ترجم الكتاب إلى اللغة الإنجليزية) وله اهتمام بالشيعة والتشيع، وعرف عن لويس صلته بالحكومة الفرنسية وتقديمه المشورة لها.40 وفي سنة 1906 عكف على دراسة اللغة العربية الفصحى و العامية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس .فاستهواه الشرق بتراثه العقائدي و خاصة التراث الإسلامي.إلى جانب تعلمه اللغة العربية تعلم ماسينيون لغات أخرى كالتركية و الفارسية والألمانية و الانجليزية و عني بالآثار القديمة و شارك في التنقيب عنها. ومما هو متعارف عليه أن المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون كان رجلا يجمع بين المتناقضات فكان من جهة صوفيا و من جهة أخرى سياسيا. إن التجربة الصعبة التي عاشها ماسينيون في بغداد بعد اتهامه بالجوسسة و من ثم إلى السجن قادته إلى التصوف من خلال اكتشافه للحلاج و لمدرسة التصوف ببغداد .فكتب عنه كتابا حصل من خلاله على شهادة تقديرية من جامعة نونتر في باريس لبراعة التحقيق و التوثيق العلمي و الفكري.41 ثم نشر بعد ذلك ديوان الحلاج مع ترجمته إلى الفرنسية و كتب كذلك مصطلحات الصوفية،و أخبار الحلاج و الطواسين كما كتب عن ابن سبعين الصوفي الأندلسي و عن سلمان الفارسي ،كما تولى تحرير مجلة الدراسات الإسلامية و أصدر بالفرنسية حوليات العالم الإسلامي حتى عام 954. (42) إن دراسة ماسينيون للتصوف عامة و للحلاج خاصة جعلت منه شخصا يرى أن المقدس يوجد في صميم كل إنسان و كل حياة.و كان يعتقد أن علاقة البشرية بالتعالي هي علاقة أساسية، وبالتالي فلا يمكنه أن يتصور وجود مجتمع الحادي أو مادي بحت.فقد كان يقلقه التصور التكنولوجي والصناعي و النظرة الوضعية للكون.و لهذا لا يمكن فهم ماسينيون إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار التصور الروحي للوجود. فقد كان ماسينيون من المسيحيين الذين انفتحوا على الدين الإسلامي و على عمقه الروحي و هذا الشيء الذي جعله يصطدم مع نظرة قومه و مجتمعه و التي كانت تحمل صورة سلبية عن الإسلام و المسلمين.و من الأمور التي أثارها ماسينيون اعترافه لأول مرة بالحضور الالاهي عند غير المسيحيين .و مخالفته للاعتقاد الذي كان سائدا عند الكنيسة بأنه لا خلاص خارج الكنيسة و لا وجود لإيمان مقبول غير الإيمان المسيحي .

- **بعض خصائص المدرسة الاستشراقية الفرنسية:** ينتمي لويس ماسينيون إلى المدرسة الاستشراقية الفرنسية و التي تتميز بجملة من الخصائص يمكن إجمالها في العناصر التالية :

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

– العداء والحقد للإسلام دينا و حضارة، و يعود هذا الحقد إلى الصراع الذي كان قائما بين الطرفين أي بين أوروبا و الإسلام اثر استيقاظ أوروبا على وجود دولة إسلامية مجاورة لهم (في اسبانيا و البحر المتوسط و جنوبه) تمثل تهديدا و خطرا ينبغي إزالته و التخلص منه.و ذلك بشحن الفرنسيين بجملة من الأفكار العدائية للمسلمين على أنهم كفرة برابرة ينبغي مواجهتهم .فكانت الحروب الصليبية .

إن هذا الصراع المرير انعكس على كافة الجوانب الحيوية للفرنسيين و ألقت بظلالها الثقيلة على الدراسات و البحوث التي تعالج قضايا الشرق عموما و الإسلام بشكل خاص.فجاءت معظم الدراسات محملة بالتشويه المتعمد للإسلام ولشخص الرسول عليه الصلاة و السلام.43

– ما يميز كذلك المدرسة الفرنسية غلبة الروح الصليبية النصرانية على كتابات المستشرقين الفرنسيين لذلك نصبت نفسها كمدافعة و حامية للنصارى خاصة الشرقيين منهم.

– تعميق روح العنصرية الفرنسية في الدراسات الاستشراقية من خلال الإعلاء من التراث الفرنسي و ربطه بحضارة الإغريق في مقابل الحط من شأن و قيمة الحضارة العربية الإسلامية و اعتبارها مجرد حلقة وصل بين الحضارة الإغريقية و بين الحضارة الأوروبية .

– نزعة التفوق والاستكبار المهيمنة على معظم الدراسات الاستشراقية للمدرسة الفرنسية .حيث نلمس في هذه الأخيرة هذه العقدة التي يعبر عنها روجي غارودي في كتابه حوار الحضارات بعقدة ماراتون"وهي عقدة تعبر عن نزعة التفوق عند الغرب .و في المقابل نجد عقدة الدونية التي ابتلي بها اللاغرب ..."44.

هذه بعض الخصائص الأخلاقية التي ميزت المدرسة الفرنسية الاستشراقية.

ب/– ماسينيون وأسئلة التصوف:

عند محاولتنا قراءة ماسينيون للتصوف من خلال كتاب التصوف الذي ألفه مع الشيخ عبد الرازق والذي ترجم من قبل لجنة دائرة المعارف الإسلامية :(اباهيم خورشيد و عبد الحميد يونس وحسن عثمان) دار الكتاب اللبناني مكتبة المدرسة. تواجهنا مجموعة من الاسئلة يمكن اجمالها في هذه العناصر

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أ/– سؤال الأصل:يقول ماسينيون في كتاب التصوف محددا أصل الكلمة:" التصوف مصدر الفعل الخماسي المصوغ من "صوف" للدلالة على لبس الصوف ،و من ثم كان المتجرد لحياة الصوفية يسمى في الإسلام صوفيا ".وينبغي رفض ماعدا ذلك من الأقوال التي قال بها القدماء و المحدثون في أصل الكلمة،كقولهم ان الصوفية نسبة إلى "أهل الصفة "و هم فرق من النساك كانوا يجلسون فوق دكة المسجد بالمدينة لعهد النبي، أو أنهم من الصف الأول من صفوف المسلمين في الصلاة،أو من بني صوفة،و هي قبيلة بدوية،أو أنهم نسبوا إلى "الصوفانة" وهي بقلة ، أو إلى "صوفة القفا" وهي الشعرات النابتة عليه ، أو أن اللفظ مشتق من "صوفي" مطاوع صافي والأصل صفا. وقد استعمل هذا اللفظ المطاوع منذ القرن الثامن الميلادي للتورية مع كلمة صوفي بمعنى المتنسك لابس الصوف، ومع الحكمة اليونانية سوفوس التي حاولوا فيها المحال بالمعادلة بين "تيوس وفيا" theosophie "و"تصوف " وقد نول دكه noeildeke هذا المذهب الأخير في أصل كلمة "صوفي " مبينا أن السين اليونانية تكتب باطراد في العربية سينا لا صادا، وأن سين في اللغة الآرامية كلمة متوسطة للانتقال من "سوفوس " اليونانية إلى "صوفي " العربية. يبدأ ماسينيون الكلام عن أصل التصوف مركزا على أن التصوف من الصوف وكل من لبس الصوف وتفرغ لحياة الصوفية يدعى في الإسلام صوفيا. مقصيا بذلك جملة التعاريف والفرضيات الأخرى التي أعطت للتصوف .و السؤال الذي يطرح لماذا هذا الإقصاء والإبقاء على التعريف الأول.

القراء ة الأولى :"الظاهرية": إن محاولة القراءة واستنطاق تعريف ماسينيون للتصوف أقصى ماسينيون الفرضيات الأخرى التي أعطيت لأصل كلمة التصوف وأبقى على فرضية واحدة ترجع التصوف إلى لبس الصوف وكل من كان له انتماء إلى هذه الجماعة أصبح صوفيا. إن الفرق الذي أبقى عليه ماسينيون هو ما يذهب إليه زكي مبارك حينما يعتقد بأنه أصح الفروض وتؤيده شواهد عدة حيث يذكر الدكتور "أن لباس الصوف كان غالبا على المتقدمين من سلف الصوفية لأنه أقرب إلى الخمول والتواضع والزهد، ولكنه لباس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد جاء أن رسول الله صلى الله عيه وسلم كان يركب الحمار ويلبس الصوف، وعنه "ص" أنه قال : مر بالصخرة من الروحاء سبعون نبيا حفاة عليهم العباء يؤمنون البيت الحرام، وعنه "ص" أنه قال يوم كلم الله تعالى موسى عليه السلام : كان عليه جبة من الصوف، وسراويل من الصوف . وقيل أن عيسى عليه السلام كان يلبس الصوف والشعر

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويأكل من الشجر، ويبيت حيث أمسى. وقال الحسن البصري رضي اله عنه: لقد أدركت سبعين بدريا،كان لباسهم الصوف45. فقد بلغ وهب بن منبه أن عيسى خرج على أصحابه وعليه جبة من الصوف وكساء وتبان ..."46 هذا ما يؤكد لنا أن الأنبياء والصالحين كانوا يؤثرون لباس الصوف لأنه رمز التقشف والزهد والابتعاد عن ملذات الحياة والتجرد لعبادة الله سبحانه وتعالى. إن هذا التعريف يتناسب كذلك مع تعريف الدكتور علي زيعور : الذي يرى أن التصوف "نظام تعبدي أسطوري يدور حول التضحية التي يقدمها المتعبد فدية ، أو إرضاء أو أملا بالبركة والوفرة، فهو يعد المرحلة الأخيرة للتطور الديني الأسطوري".47 فالعبادة قائمة على التضحية إلا أن هذه الأخيرة عرفت تطورا وأشكالا. فقد كانت في بداية الأمر تقدم أضاحي بشرية كتقديم الفتاة البكر العذراء وفي المرحلة الثانية استبدلت الأضاحي البشرية بالأضاحي الحيوانية أما في المرحلة الأخيرة صار البديل وضع الصوف على الجسد أي صار الصوف تعبيرا و رمزا عن الأضحية التي كذبح كقربان لله سبحانه فيتحول الصوفي رمزيا إلى ذبيحة أو أضحية وهبت نفسها لله فصار بذلك منقطعا مقدما نفسه وكأنه نذر لله سبحانه. وعند تحديد أصل الكلمة بالبحث عن اشتقاقها اللغوي يمكن إرجاعها إلى البحث إلى الفعل الخماسي "تصوف " التي جاءت من ا لصوف. مقصيا الاشتقاقات الأخرى التي لها علاقة قرابية بالكلمة ومنها:

-أهل الصفة : والصفة هي المقعد المغطى خارج المسجد يأوي إليه من لم يكن له بيت من المسلمين وكان عددهم كبير بعد الهجرة إلى المدينة"48. أو مشتقة من الصف: أي كان في الصف الأول من صفوف المسلمين في الصلاة، وفي الصف الأول أمام الله.49 أومن صوفة: وهي قبيلة بدوية تعرف بني صوفة، أو إشارة إلى قوم في الجاهلية يقال لهم صوفة. انقطعوا إلى عبادة الله عز و جل وسكنوا الكعبة فكل من تشبيه لهم فهم صوفية. 50وقد تشتق من كلمة صوفانة وهي نوع من البقل قصير كان يأكله هؤلاء المتصوفة حيث نجد إشارة قرآنية في ذلك قوله تعالى ":وقالوا لن نصبر على طعام واحد". و قد تشتق من القفا وهي الشعر الذي ينبت في القفا.كما وقد تشتق من كلمة صفا من "الصفاء" لأن الصوفي من صفا الله قلبه ...ولذلك سميت الصوفية لصفاء أسرارها ونقاء آثارها.51 وقد تشتق كذلك من كلمة صوفيا اليونانية والتي تعني الحكمة، إلا أن هناك من يستبعد هذا الفرض وهذا ما ذهب إليه الدكتور زكي مبارك مقتفيا رأي لويس ماسينيون. حيث يرى أنه "ضربا من ضروب الإعراب،وحتى وإن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قال به أبو الريحان البيروني وقال به فون هادمر من المستشرقين ،وتعصب له الأديب عبد العزيز الإسلام بولي والأستاذ محمد لطفي جمعة"52.

إن القراءة الأولى لنص ماسينيون في تحديده لأصل الكلمة جاء قطعيا فقد ففصل من الوهلة الأولى في الأمر متحيزا إلى تعريف التصوف على أنه مشتق من الصوف، رافضا بذلك كل التعاريف الأخرى التي قدمت لتحديد أصل التصوف دون تقديم أدلة وبراهين على ذلك .لذلك قد يتساءل المرء لماذا الإقحام والسكوت عن تقديم مثل هذه الأدلة؟ هل هذا يعود إلى ماسينيون على أنه لم يجد ما يبرر به أقواله أم يعود ذلك إلى طبيعة التصوف التي تتطلب السرية واستعمال التقية من جهة أخرى؟ تم إن المتمعن في التحديد الذي اعتمده ماسينيون والذي يحصر التصوف "في كل من لبس الصوف وتجرد لحياة الصوفية يسمى في الإسلام صوفيا ."53 فإن هذا التعريف يبدو مبهما غير واضح حيث نجد مفهوم الصوفية غامضا يحتاج إلى تعريف وتدقيق . ثم قد نتساءل لماذا هذا الحكم القاطع في رفض كل الافتراضات الأخرى والإبقاء غلى فرضية إرجاع التصوف إلى الصوف؟ ولعل هذا المفهوم هو الذي يرتاح إليه ماسينيون لأنه يجعله قريبا من مسيحيته وكذلك لوجود الشبه بين "حياة الزهاد و الصوفية وتعاليمهم وفنونهم في الرياضة والخلوة وبين ما يقابل هذا... " 54 ومن جهة أخرى فهو يوهم القارئ في البداية إلى أن، التصوف أصله إسلامي لكن التعريف في باطنه يوحي بأنه يعود إلى أصول مسيحية. لأنه عند تحديد أصل التصوف ومصدره نجد هناك من يربطه بالأصول الإسلامية التي يربط التصوف بمختلف الاشتقاقات التي رفضها ماسينيون في تحديده لأصل الكلمة.

أما الفريق الثاني الذي يقول :" بأصول غير إسلامية فيشتقون الكلمة من سوفيا اليونانية .. أو،من الصوف الذين كان المسيحيون الرهبان يرتدونه "55وهنا تكمن خطورة ماسينيون.

ثم ينتقل بعد ذلك في تحديد أصل الكلمة عندما يرى بأن كلمة الصوفي وردت لقبا مفردا لأول مرة في التاريخ في النصف الثاني من القرن الميلادي ما يثير الانتباه أن ماسينيون حينما يتكلم عن بداية نشأة لفظة صوفي المفردة يؤرخ لها باستخدامه التاريخ الميلادي مبعدا بذلك التاريخ الهجري وهنا تظهر من جديد كذلك ميولا ته وذاتيته وانحيازه إلى مسيحيته . وعن كلامه عن الأوائل الذين حملوا مشعل التصوف يركز على شخصيات"كجابر بن حيان وهو صاحب كيمياء شيعي من أهل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الكوفة وأبو هاشم الكوفي .."56. فهو يحاول لفت نظرنا إلى مذهب الشيعة ترميزا . و الكوفة و العراق و خرسان كما هو معروف معقل هذه الأخيرة(الشيعة). مما يوحي لنا بطريقة غير مباشرة أن التصوف يعود في أصله الإسلامي إلى الشيعة لا إلى أهل السنة. وهذا ما يصل إليه من خلال استنتاجاته عندما يقول :إذن ." وكلمة صوفي كانت في أول أمرها مقصورة. على الكوفة "57وهي مقر إقامة الإمام علي رضي الله عنه. وهذا ما ذهب إليه الكثير من المستشرقين على غرار المستشرق جولد زيهر...58 ثم نجد في آخرا لصفحة يصل إلى نوع من التعميم حينما يقدم ماسينيون معلومات دون الإحالة على مصادرها حينما يقول "ثم أخذ هذه الاسم يطلق بعد ذلك بقرنين على جميع أهل الباطن من المسلمين كما هو حالنا اليوم في إطلاق كلمة الصوفي وصوفية." 59وحينما يستشهد برواية الجوبياري قائلا: "وروى الجوبياري عن النبي أحاديث لعلها من وضعه، يستحب فيها لبس الصوف " 60فان هذا ما يثير التساؤل التالي فينا.

هل أهل الباطن هم المتصوفة فقط؟ ألم تكن الفرق الأخرى غير الصوفية أهل باطن مثلا؟ ألم تكن المعتزلة أهل باطن ؟.... هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لماذا يركز على"أهل الباطن"؟ إنه يحاول استبعاد أهل سنة واستبعاد القائلين بأن للتصوف مصادر إسلامية خالصة بمعنى آخر لا وجود لتصوف سني. مهما قيل فإننا يمكن القول على غرار التفتا زاني حينما أكد لنا بأنه " ونحن وإن كنا لا ننكر وجه الشبه بين الزهد و التصوف الإسلاميين وبين ما يقابلهما عند المسيحيين من زهد وتصوف ، إلا أن وجه الشبه وحده لا ينهض دليلا على أن التصوف الإسلامي من مصدر مسيحي."61

ثم لماذا الكوفة؟ يتحدث الدكتور أبو العلا عفيفي عن أثر الثقافات الأجنبية على زهاد الكوفة فيرى أنهم تأثروا بالثقافة الآرامية التي كانت امتدادا للفكر الفلسفي الشرقي الذي يكون خلال قرون السنة الميلادية الأولى. مستمدا مادته من الفكر اليوناني الفارسي، أي أنه كان مزيجا من الفلسفة الأرسطية والطب والكيمياء و الميتافيزيقا الفارسية ... وهذا ما يمكن التماسه عند جابر بن حيان الكوفي المعروف بالصوفي وزهده أقرب لإلى زهد الفلاسفة وله مصنفات في المنطق والفلسفة والكيمييياء....."62 هذه الشواهد تؤكد لنا نوايا ماسينيون في الانتصار للتصوف الفلسفي. وكذلك لتأكيد المقولة التي روج لها الكثير من المستشرقين المتعصبين أمثال رينان الذي قال بأن الفلسفة الإسلامية ما هي إلا فلسفة يونانية كتبت بأحرف العربية. وأن العقل العربي عقل سامي عاجز عن الإبداع والابتكار. يقول رينان مؤكدا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ذلك" إن العقل السامي لا طاقة له إلا على إدراك الجزئيات والمفردات منفصلا بعضها عن بعض، أو مجتمعة في غير تناسب ولا تناسق ولا ارتباط، فهو عقل مباعدة وتفريق لا جمع وتأليف."63

ب/– سؤال المنهج : يعتمد أنصار الإستشراق على جملة من المناهج التي يستند عليها ماسينيون أهمها :**المنهج التاريخي**، إن هذا المنهج يكرس المركزية الأوروبية التي تؤمن بفكرة التفوق والتي تربط الفكر الأوروبي بالفكر اليوناني وما الحضارة العربية الإسلامية إلا حلقة انتقال سريع لا أثر لها ولا فعالية على الحضارة الأوروبية وكل ما جاءت به ما هو إلا مزيج من حضارات وديانات سابقة .ولهذا نجد ماسينيون يعتمد هذا المنهج ليبين امتداد التصوف الإسلامي وامتزاجه بالتصوف المسيحي. يرى الجابري في هذا الصدد أن المتأمل في باطن الدراسات الإستشراقية سيفسح له المجال للكشف عن خبايا وخفايا الإستشراق والمستشرقين ولهذا يتعين أن ينصب البحث عن طبيعة الرؤية أو المنهج والتعرف على الخلفية التي تكمن وراءه وتبيان الباعث الأساس على هذه الدراسات الإستشراقية .. ولذلك فإن رواد الفكر العربي الأوائل أمثال مصطفى عبد الرازق وإبراهيم مدكور تعاملوا مع التراث عامة والفلسفة الإسلامية خاصة بمناهج المستشرقين أنفسهم ولم يطرحوا بديلا لذلك64

أما **المنهج الفيلولوجي** فإن الهدف من توظيفاته يكمن في" النظرة التجزيئية. و المنهج الفردي فكان يركز عليه صاحب النظرة الذاتية الذي يجعله يتعاطف مع الفيلسوف وتجربته الفلسفية "65. إن المستشرق المغرم بالمنهج الفيلولوجي على الرغم من اختلافه مع زميله الشمولي النظرة داخل الإطار الأوروبي، يتفق معه خارجه لأنه عندما يتجه إلى الفلسفة الإسلامية بنظرته التجزيئية لا يعمل على رد أجزائها إلى أصول تقع داخلها، أو على الأقل مقروءة بتوجيه من همومها الخاصة، بل هو يجتهد كل الاجتهاد فيرد تلك الأجزاء، إلى أصول يونانية "66وهذا بطبيعة الحال يصب في نهر الحضارة الأوروبية اليونانية الأصل .أما أصحاب **المنهج الذاتي** ،فإنه يقوم على التعاطف مع الشخصيات المدروسة وتجاربها حتى ولو كانوا خارج الثقافة الأوروبية مثلما وقع لماسينيون مع الحلاج حيث حاول تقمص تجربته الصوفية،فإنه يظل كذلك موجها من داخل ذات الإطار مشدودا إليه غير قادر ولا راغب أبدأ في الخروج عنه أو القطيعة معه فإنه إذ يتمرد على حاضر هذا الإطار الأوروبي يتمسك بماضيه فيعيشه رومانسيا عبر تجربة هذه الشخصية أو تلك من الشخصيات الروحانية في الثقافة العربية الإسلامية التي يجد فيها تعويضا عن الروحانية التي افتقدتها الثقافة الأوروبية المعاصرة، وقد يذهب إلى أبعد من ذلك فيطالب باستعادة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

روحانية الغرب مما لدى الشرق. فيعيش نوع من النكوص إلى روحانية الغرب المفقودة من خلال الاتجاه المادي للحضارة الغربية و يعيش أزمته الروحية "و يقرأ فيها ب "تعاطف" رومانسي روحانية المسيحية الأوروبية في القرون الوسطى."67 إضافة إلى ذلك إن ماسينيون في كتاب التصوف يتعمد الانطلاق من مقدمات عامة ضنية و غير قطعية ليصل بها إلى نتائج هي الأخرى ضنية لأن ما يبنى على الضن ينتج الضن.فعندما يقول:"و التفاسير الصوفية للقرآن و الأحاديث الصوفية عن حياة محمد الباطنية التي لا نعلم عنها إلا القليل متأخرة في الزمن بعض الشيء حتى ليشك فيها."68 هكذا نجد هذه المقدمة التي ينطلق منها ماسينيون غير قائمة على استقراء تام للجزئيات و لهذا جاءت مشوبة بالضن.فالعلم القليل بالشيء أو الشك فيه ليس مبررا للتعميم. و بالإضافة إلى ما ذكرناه فان ماسينيون اعتمد في البرهنة على ذلك على شخصيات قاصة عندما يقول "فانا نجد الجاحظ و ابن الجوزي ،و هما من القصاص."69 و نحن نعلم أن القصة تحمل من الخيال ما يبعدها كثيرا عن الحقيقة.ثم بعد ذلك نجده يبطل الأحاديث و يرجح ببطلان الحديث "لا رهبانية في الإسلام "لتكون بعد ذلك المقدمات التي انطلق منها ضنية و ملفقة.

ج/– سؤال الشرعية: يحاول ماسينيون في كتابه التصوف البحث عن شرعية له ، حيث يقول:" " على أن النزوع إلى التصوف، وما خلا منه قطر من الأقطار أو أمة من الأمم،"70 هذا يعني أن التصوف يعتبر ظاهرة عالمية تشترك فيها جميع الأمم ،مبعدا الأصول الإسلامية الخالصة وبذلك فإن التصوف في الإسلام يفقد شرعيته الخصوصية . وهذا الموقف يحيلنا إلى قضية خطيرة وهي أن الإسلام ما هو إلا نسخة ثابتة عن اليهودية والمسيحية ، وما الإسلام إلا منتوجا أرضيا معتقد ين أن محمدا عليه السلام والنساك الأولين في الإسلام هم الذين كانوا وراء هذا النقل وهذا ما يذكره أحد المستشرقين قائلا:"إن هذا الفريق من الزهاد أو النساك كان ذا نمو محلي بين العرب تطورت به مؤثرات مسيحية مما قبل الإسلام و نحن نعلم أن الرهبانية المسيحية كانت معروفة لدى العرب على تخوم الصحراء السورية وفي صحراء سيناء، ويحتمل حقا أن الذي أوحى بالنسك إلى النساك الأولين في الإسلام هو الأديرة المسيحية إما مباشرة ، أو من طريق ما ذكرناه من تحنث محمد."71 ثم نجده في الصفحة 29 من الكتاب نفسه يرى بأن محمدا أعطى الشرعية للصوفية بمعنى أنه شرعن الفكر الصوفي عندما يقول "إنه لم يعد من الجائز أن يقال إن محمدا أخرج المتصوفة ابتداء من الجماعة الإسلامية." 72ثم الأخطر من ذلك عندما ربط ذلك بحديث "الرهبانية في الإسلام مفندا ادعاءات أولئك الذين اعتبروا الحديث ضعيفا و

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نحن نعلم في المنطق أن نفي النفي إثبات . فهو يقول في آخر الصفحة '29' " وكان مفسرو القرون الثلاثة الأولى للهجرة أمثال مجاهد وأبي إمامة الباهلي والمتصوفة القدامى الذين عرفوا بالحرص قد أجمعوا على تفسير هذه الآية تفسيرا يجيز الرهبانية ويمتدحها ." 73فإثبات القول بالرهبانية يحيلنا إلى المسيحية وهذا ما يجعلنا نستنتج من قول ماسينيون أن التصوف هو حالة من حالات الرهبانية. أما في الصفحة 30 و بعد إثباته آراءه بالبحث عن الأدلة النظرية و ذلك باعتماده على نص الحديث "لا رهبانية في الإسلام ". فإننا نجده يحاول البحث عن أدلة واقعية تاريخية بالاستناد إلى الاستشهاد بالصحابيين الجليليين وهما "أبو ذر وحذيفة". والاستشهاد بصحابة رسول الله يعني إقرار الرسول "ص".لمثل هذه الأفعال . والصمت دليل الرضا.

الخاتمة:

– إن الإجابة عن الإشكالية التي تم طرحها في مقدمة هذه المداخلة يمكن إجمالها في مجموعة من العناصر كانت ثمرة البحث عن طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب، هذه الأخيرة التي أصبحت اليوم مؤججة بالصراعات التي تغذيها الكراهية وجب الانتقام.

– وإذا ما أردنا فهم الغرب على حقيقته ينبغي الرجوع إلى فهم تاريخ العلاقة بين الشرق والغرب .و المتتبع له=ه العلاقة يجدها قائمة على الصراع و الكراهية و حب الانتقام من الشرق كون هذا الأخير كان يمثل مصدر تهديد دائم للغرب .خاصة حينما استيقظ الغرب في القرون الوسطى على وجود دولة محاذية لهم ،و هي الخلافة الإسلامية بالأندلس. لذلك أصبح ع لزاما عن الغرب التفكير بجدية و بشتى الوسائل للقضاء على هذا الشرق لأنه مصدر تهديد لهم.

– لقد جرب الغرب كل الوسائل لتدمير الشرق .فكان الاستعمار في أول أمره قائما على استخدام القوة و العمل على سلب و نهب خيرات الشرق.ثم تبعه الاستعمار الثقافي الذي كان يهدف الى تغريب الشرق من خلال تمسيحه و تنصيره والعمل للقضاء على هويته.فكان من بين هذه الوسائل.تجنيد الاستشراق و المستشرقون من علماء و مفكرين هدفهم فهم تراث الشرق في عاداته و تقاليده و مختلف علومه في الأدب و الدين و الفلسفة و التصوف و غيرها من العلوم التي تحمل بصمات الشرق و خصوصيته.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

– لقد كانت أهم نتيجة و صلنا إليها في هذا البحث ،هي أن الاستشراق ما هو إلا أداة استعمارية سخرها الغرب لفهم نقاط ضعف الشرق و نقاط قواه حتى يتمكن من دحره و تدميره،لأنه عرف أن استخدام القوة المادية لا يفلح فكان البحث عن وسائل أخرى أفتك و هي تلك التي تزرع الشك و الريب في نفوس المسلمين حول دينهم و معتقداتهم. و من الأمور التي عكف المستشرقون على الخوض فيها تركيزه على البعد الروحي ممثلا في التصوف .و من هؤلاء كانت دراسة ماسينيون الذي ولع بدراسة تصوف الحلاج.

- لقد كان ماسينيون من المستشرقين القلائل الذين انفتحوا على الإسلام بشكل حقيقي، مركزا في ذلك على الجوانب النفسية للتصوف،و هو الجانب الذي ركز فيها و لا غبار عليها لكن التمعن فيها يكشف عن وجود دسائس كثيرة أهمها أن كل ما كان يحرك ماسينيون في دراسته هو ربط التصوف في الإسلام بالمسيحية، من خلال تعريف التصوف على أنه لبس الصوف لأن هذا الأخير يعد رمز الزهد و التقشف،تم لأنه كان كذلك لباس المسيح عليه السلام.على البعد اللاهوتي الذي أهمل من قبل الكثير منهم.
- – يعد الاهتمام بالحلاج نوعا من الإسقاط الذي مارسه ماسينيون على الحلاج. لأن افتقار الغرب للبعد الروحي جعله يبتعد عن هذا المجتمع ليجد ضالته في الشرق و بالخصوص في شخصية الحلاج لأنها مليئة بالروحانيات
- الإضافة إلى ذلك إشارته إلى فكرة الحوار المسيحي الإسلامي أي العلاقة بين الغرب و الشرق ،بين الإسلام و المسيحية ،بين الفلسفة و الوجد. لذلك يمكن القول أن "شخصية الحلاج ،لا بل نظرة ماسينيون إلى شخصية الحلاج هي التي تعطينا مفاتيح فهم تطور ماسينيون الروحي ".74 وسر كل هذا الهيام بالحلاج حتى أصبح يلقب بمريده المتفاني في حبه له.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الهوامش:

1/ ابن منظور لسان العرب ،دار احياء التراث بيروت ،الطبعة الأولى 1988،الجلد السابع ، مادة شرق ص 173 .

2/ الزبيدي تاج العروس من جواهر القاموس دراسة و تحقيق علي شيري دار الفكر 1994، الجزء الثالث عشر ص 237 .

3/ زهير بن أبي كتفي، المرجع السابق ،ص 29.

4/ ادوارد سعيد الاستشراق ،المعرفة ،السلطة ،الانشاء ،ترجمة كمال أبو ديب مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت،الطبعة 4 ،1995، ص ص80 ،81 .

5/ جميل الحاج ، الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي الاجتماعي ،مكتبة لبنان ناشرون ط1 سنة 2000 ،ص ص 33 34 .

6/ ادوارد سعيد، الاستشراق، "المعرفة، السلطة، الانشاء"، ص80.

7/ مكسيم رو دنسون، "الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية"، في تراث الإسلام، (القسم الأول) تصنيف شاخت وبوزرت، ترجمة محمد زهير السمهوري، الكويت، سلسلة عام المعرفة، شعبان، رمضان 1398هـ / أغسطس 1978 ، ص27 - 101 .

8/ الموسوعة العلمية"، مؤسسة أمل الموسوعة للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، سنة 1999 – ص713.

9 /أنظر محمود حمدي زقزوق الاستشراق و الخلفية الفكرية للصراع الحضاري دار المعارف ،القاهرة ،1997،ص 18.

10/ دوارد سعيد ،ترجمة محمد عناني ،الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق ،رؤية للنشر و التوزيع،الط 1،2006،ص 2

11/ ادوارد سعيد ،المرجع نفسه،ص 73.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

12/ سهيل ادريس، المنهل، دار الأدب، بيروت، لبنان، ط1- سنة1999- ص851.

13/ ادوارد سعيد ، المرجع السابق، ص 12.

14/ ادوارد سعيد، المرجع نفسه، ص 92.

15/ عبد الرحمان ابن خلدون :المقدمة ،دار الكتاب اللبناني ، مكتبة المدرسة ،1982،ص863.

16/ مصطفى عبدالقادر غنيمات،التصوف الاسلامي مفهومه و نشأته و أهميته، في مجلة الفكر المتوسطي ،العدد السابع 2013ص 176.

17/ أبو العلا عفيفي ، التصوف الثورة الروحية في الإسلام ، دار الشعب ،دت ،ص63.

18/ سورة المزمل ، الآية 8.

19/ سورة المزمل ، الآية 24.

20/ د. ابو الوفا الغنيمي التفتازاني ، المرجع السابق ،ص3

21/ د. الشيخ خالد بن تونس ، التصوف قلب الإسلام ، دار الجيل للنشر والطباعة وتوزيع ، الطبعة الأولى ، 2005، بيروت ، ص7.

22/ د . زكي مبارك ، التصوف في الأدب و الأخلاق ، الجزء الأول ، دار الجيل بيوت لبنان ،ص40.

23/ العرفان هو المعرفة الروحية عند الصوفي .

24/ د. جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، الجزء الأول ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت سنة 1982 ،ص747.

25/ -د. أبو الوفا الغنيمي التفتازاني ، المرجع السابق ، ص21.

26/ محمد عبد المنعم الخفاجي ، الأدب في تراث الصوفي ، دار غريب للطباعة القاهرة ، 1938، ص ص 23 24.

27/ الصوفية الوجه الآخر : غازي محمد جميل ، إعداد عبد المنعم الجداوي ، لقاء صحفي ،ص47.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

28/ د.محمد جلال شرف : التصوف الإسلامي مدارسه ونظرياته ، دار العلوم العربية للطباعة والنشر . الطبعة الأولى ،1990ص20.

29/ -د.محمد جلال شرف ، التصوف الإسلامي ، ص24.

29/ د.حسن جلاب : بحوث في التصوف المغربي المطبعة والوراقة الوطنية ، الطبعة الأولى مراكش ،1995،ص ص 136 -137.

30/ عمر فروخ :التصوف في الإسلام ، دار الكتاب العربي ، بيروت د ت ،ص19.

31/ جواد مرابط : التصوف والأمير عبد القادر الحسيني الجزائري الناشر ،دار اليقظة ، العربية ، دمشق سوريا 1966ص8.

32/ جواد مرابط ، الرجع نفسه ، ص54.

33/ أحمد بن عجيبة ، معراج التشوق إلى حقائق التصوف مطبعة مصطفى الحلبي ، القاهرة ص4.

34/ الجرجاني 'أبو الحسن علي بن محمد ' : التعريفات ، الدار التونسية ، للنشر ، 1971م ، ص143.

35/ ابن خلدون : شفاء السائل لتهذيب المسائل ، نشر وتعليق الأب أ غناطيوس عبده خليفة اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية بيروت 1959،ص79.

36/ فؤاد صالح السيد : الأمير عبد القادر ، متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ، سنة 1985، ص114.

37/ أنظر ،-د. عبد المجيد عطار : رسالة دكتوراه بعنوان سؤال في الحداثة في الشعر الصوفي ، جامعة تلمسان ص68.

38/ -دروس في الفكر الإسلامي ، أحمد السطائي ومصطفى العمري ، دار النشر المغربية الدار البيضاء ، بدون ط، ص105.

39/ عطار عبد المجيد ،المرجع نفسه،ص 70.

40/ د أبو الوفا التفتازاني ،المرجع السابق ،ص 126.

41/ مدرسة الاستشراق الفرنسي، أنظر الموقع: http//www.marefa.org//index.php

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

42/ طلال سالم الحديثي ،المقال نفسه ،المرجع نفسه.

43/ د أنور محمود زناتي ،مدارس الاستشراق ،المدرسة الفرنسية ،في موقع:.www.alukah.net/sharia/0/48499

44/ انظر الموقع: www.alukah.net

45/ روجي غارودي ،حوار الحضارات ،تعريب عادل العوا، عويدات للنشر و الطباعة بيروت،الطبعة 4،1999،ص 164.

46/ د .زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب و الأخلاق ،الجزء لأول ، دار الجيل بيروت ، لبنان ، بدون ط، بدون نشر ، ص 42.

47/ د. محمد جلال شرف :التصوف الإسلامي مدارسه ونظرياته دار العلوم العربية، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى، سنة،1990م ص26.

48/ علي زيعور ، في العقلية الصوفية ونفسانية التصوف نحو الإتزانية إزاء الباطنية والأول يائية في الذات العربية،دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1978،ص12.

49/ د.حسن جلاب : بحوث في التصوف المغربي ،الطبعة الأولى ، مراكش ،1995م ،ص .136.

50/ د. أبو الوفا الغنيمي التفتزاني :مدخل إلى التصوف الإسلامي ،ص21.

51/ د. زكي مبارك ،المرجع ،نفسه،ص 40.

53/ التعرف مذهب أهل التصوف نقلا عن ،د.حسن جلاب، المرجع نفسه ، ص136.

52/ ينظر زكي مبارك: المرجع نفسه ،ص51.

53/ ماسينيون ود. مصطفى عبد الرزاق : التصوف ترجمة ابراهيم فورشيد ، عبد الحميد يونس حسن عثمان ، دار الكتاب اللبناني ، مكتبة المدرسة ، الطبعة الأولى ، 1948 م، ص .25

54/ د. أبو الوفا الغنيمي التفتازاني ، المرجع نفسه ، ص26.

55/ حسن جلاب ، المرجع السابق، ص 137.

56/ انظر ماسنيون ومصطفى عبد الرزاق ، المرجع نفسه ، ص26.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

57/ ماسينيون ، المرجع نفسه ،ص26.

59/ التفتازاني ، المرجع السابق ، 26.

60/ ماسينيون ، المرجع السابق،ص27.

61/ التفتازاني،المرجع السابق،ص 29.

62/ د. ابو الوفا الغنيمي التفتازاني ، المرجع نفسه ،ص 79 -80.

63/ د زازوي موفق مقال : موقف الجابري من الرؤية الإستشراقية في الفلسفة الإسلامية في مجلة الفكر المتوسطي ، مخبر حوارالحضارات والديانات في حوض البحر المتوسط ، العدد 1 ديسمبر ، 2012 ص-120.

64/ د. زازوي موفق ، المقال نفسه ، المرجع نفسه ، ص123.

65/ الجابري ،التراث و الحداثة ، مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت الط 3 2006،ص78.

66/ الجابري ، المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

67/ الجابري،المرجع السابق، ص 91.

68/ ماسينيون و مصطفى عبد الرازق ،المرجع السابق،ص 28.

69/ المرجع نفسه ،ص28.

70/ المرجع نفسه ، ص28.

71/ د. أبو الوفا الغنيمي التف تزاني ن المرجع السبق ، ص28.

72/ ماسينيون ، المرجع نفسه، ص29.

73/ المرجع ،نفسه ، ص29.

74/ اميل أمين ،ماسينيون رجل المعرفة العميقة و التدين الواسع. في موقع:. http//dahrachives.alhayat.com /8-11-2008

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

Copyright of Dirassat in Humanities & Social Sciences is the property of Research & Development of Human Recourses Center (REMAH) and its content may not be copied or emailed to multiple sites or posted to a listserv without the copyright holder's express written permission. However, users may print, download, or email articles for individual use.

www.manaraa.com